# تفسير كتابيّ نقديّ للجواب الليتورجيّ «رحمة سلامٍ، ذبيحة تسبيح»

**الأرشمندريت جاك خليل**
**أستاذ مادّة الكتاب المقدّس – جامعة البلمند**

**١. المقدّمة**

في القدّاس الإلهيّ، وقبل الاستهلال بصلاة التقدمة، ينادي الشمّاس الشعب للاستعداد لتقديم التقدمة المقدّسة، فيجيب الشعب: «رحمة سلامٍ، ذبيحة تسبيح».

إن التفسيرات العديدة والمختلفة لهذه الجملة تعكس صعوبة فهمها. وتنعكس الصعوبة أيضًا من خلال القراءات المتنوّعة في الوثائق القديمة، فهي ليست سوى محاولات من نوع آخر لتبسيط العقد، وتوضيح الغموض في المعنى، المستمرّ عبر القرون، متحدّيًا الجهود الفكريّة التي بذلها الدارسون المدقّقون. ولكنّ القراءات التصحيحيّة للنصّ أدّت إلى تفاقم المشكلة، وإلى إكثار اللغط في الكلام والآراء حول هذه الجملة.

تتلخّص المشكلة في سؤالين هما:

١. ما القراءة الأصيلة التي حجبها نشوء القراءات الأخرى عن بصيرة الدارسين؟

٢. ما هو التفسير اللاهوتيّ المُراد من القراءة الأصيلة؟

ولا شكّ بأنّ استنباط المعنى اللاهوتي الذي تحمله هذه الجملة، يساهم في ترجيح الحكم الصائب حول القراءة الأصيلة. ولكنّ كلّ منهجيّة تكتفي بتفضيل إحدى القراءات، وتعمد إلى المدافعة عن أصالتها، انطلاقًا من تفسير ذاتيّ لمعنى هذه الجملة الصعبة، هي غير موثوقٍ بها. فقناعتي، أنّ الوصول إلى حلّ للمشكلة،

يتطلّب انتهاج المقاربات العلميّة التي تطبّق في الدراسات الكتابيّة، كالنقد النصّيّ، والتفسير على ضوء معطيات موجودة في الكتاب المقدّس، لأنّ تطبيق معايير النقد النصّيّ، في تقويم الدلائل الخارجيّة (أي تلك التي تقارن النسخ المختلفة، والترجمات القديمة، والتفسيرات أوالاستشهادات الآبائيّة) والدلائل الداخليّة (أي تلك التي تدرس معنى وفحوى عبارة ما، بهدف استنتاج القراءة الصحيحة، وتوضيح الأسباب التي أدّت إلى ظهور أخطاء في النقل والنسخ) سيلقي الضوء على الغموض الذي يكتنف هذا الجواب الليتورجيّ. وبموازاة ذلك، تبدو الضرورة ملحّة للعودة إلى الكتاب المقدّس، من أجل تفسير بنية الجملة الصعبة، لأنّها بجزءَيها، مستوحاة ومقتبسة من الكتاب المقدّس.

لذلك، سيعرض القسم الأوّل من الدراسة تقييمًا للدلائل الخارجيّة، ويتناول القسم الثاني تقييم الدلائل الداخليّة، بالاستناد إلى المعطيات اللاهوتيّة، الكتابيّة منها والليتورجيّة.

## ٢. الدلائل الخارجيّة

علينا المبادرة هنا إلى دراسة القراءات المختلفة لجواب الشعب، تلك التي نجدها في أقدم مخطوطات الإفخولوجي اليونانيّة، والترجمات القديمة، وأشكال

(*) مختصرات:

CHR الليتورجيّا الإلهيّة للقدّيس يوحنّا الذهبيّ الفم.

BAS الليتورجيّا الإلهيّة للقدّيس باسيليوس الكبير.

JAS الليتورجيّا الإلهيّة في المدينة المقدّسة أورشليم للقدّيس يعقوب أخي الربّ.

TRE P. TREMBELAS, Αἱ τρεῖς Λειτουργίαι κατὰ τοὺς ἐν Ἀθήναις κώδικας, Athens 1935.

GOAR J. GOAR, *Euchologion sive rituale Graecorum*, Venetiis ²1760 (repr., Graz 1960).

LEW F. E. BRIGHTMAN, *Liturgies Eastern and Western,* vol. 1: *Eastern Liturgies*, Oxford 1896 (repr., Piscataway, NJ 2002).

ARRANZ M. ARRANZ, *L'Eucologio costantinopolitano agli inizi del secolo XI: Hagiasmatarion e Archieratikon (Rituale e Pontificale) con l'aggiunta del Leiturgikon* (Messale), Rome 1996, 477.

ليتورجيّة أخرى (مثال: ليتورجيّا المدينة المقدّسة للرسول يعقوب أخي الربّ)، وكذلك في التفسيرات الليتورجيّة.

ونبدأ، طبعًا، بأقدم أفخولوجي متوفّر لدينا، وهو المجلّد الإيطاليّ–اليونانيّ المعروف باسم *Codex Barberini Gr. 336* (القرن الثامن). القراءة بحسب الإصدار النقديّ لهذه الوثيقة المهمّة، وفي قدّاس الذهبيّ الفمّ (CHR) (f. 29r)، هي عبارة عن جملة واحدة ترد كالآتي:[١] *Ὁ λαός*, Ἔλεος, εἰρήνη. وتجدر الملاحظة هنا أنّ الجملة التي ندرسها، كما سواها من الإعلانات والجمل والحوارات في الليتورجيّا الإلهيّة، لا ترد دائمًا وبالضرورة بتمامها؛ فكما هو معلوم، إنّ نصوص الإفخولوجي القديمة لم تكن تشمل طلبات الشمامسة وأجوبة الشعب بتمامها، بل كانت تميل غالبًا إلى تدوين الكلمات الأولى فقط.

ثمّة مخطوطات أخرى أقدم، وهي ذات مصدر قسطنطينيّ أصيل، وأهمّها اثنتان، الأولى من سيناء وتحمل الاسم Sinai Gr. 959 (القرن ١٠)، والثانية موجودة في متحف توبكابي سراي في إسطنبول (Topkapi Sarai Museum) ورقمها Gr. G-i 51 (القرن ١٣–١٥)، هاتان تحتويان على القراءة الآتية[٢]:

Ὁ λαος, Ἔλεον εἰρήνης (Sinai Gr. 959 *add* θυσία).

كما تكتسب أهمّيّة القراءتان الموجودتان في المخطوطة Cryptense Γ.β. VII (القرن ١٠)، وهي مجدّدًا وثيقة إيطاليّة–يونانيّة، تحتوي في قدّاس باسيليوس الكبير (BAS) على القراءة الآتية: Ἔλεος εἰρήνη, θυσία[٣]، بينما القراءة في CHR هي: Ἔλεος εἰρήνης, θυσία αἰνέσεως[٤]. وعلينا في هذا السياق أن نذكر القراءة

(١) S. PARENTI and EL. VELKOVSKA, *L'Eucologio Barberini Gr. 336* (ff. 1-263), Rome 1995, 31.

نصادف القراءة ذاتها في LEW, 321.11 وARRANZ, 569، بينما القراءة في GOAR, 84 هي Ἔλεον εἰρήνης.

(٢) ARRANZ, 477.

(٣) G. PASSARELLI, *L'Eucologio Cryptense* Γ.β.*VII* (sec. X), Analekta Vlatadon 36, Thessaloniki 1982, 161.

(٤) المرجع السابق، ٧٣.

التي ترد في المجلّد المفقود بيرومالوس[٥] (Pyromalus)، والتي تصف، بحسب الدارسين، BAS كما كانت تقام في «الكنيسة العظمى» (أي كنيسة الحكمة المقدّسة – آجيا صوفيا) في القرن العاشر[٦]. القراءة في المجلّد المذكور هي: Ὁ λαος,"Ελεον εἰρήνης ويجد المرء في بعض المخطوطات القراءة الآتية[٧]: Ελεον εἰρήνη؛ ولكن، حتمًا، يجب صرف النظر عن هذه الصيغة، لأنَّها لا تصحّ قواعديًّا، ولا بأيّ شكلٍ من الأشكال: فإنّ كلمة ἔλεον هي حكمًا في حالة النصب (accusatif)، أمّا كلمة εἰρήνη فهي في حالة الرفع (nominatif)، وهذا الاختلاف القواعديّ لا يسمح بعطف الكلمتين إلى بعضهما، ولا حتّى بربطهما في صيغة ذات معنى.

بعد أن استعرضنا المخطوطات الأقدم والأكثر تمثيلاً لليتورجيّا القدّيس يوحنّا الذهبيّ الفمّ وليتورجيّا القدّيس باسيليوس الكبير، علينا الآن إلقاء نظرة على شهادة ليتورجيّا القدّيس يعقوب أخي الرب (JAS)، وهي الشكل الليتورجيّ الرسميّ في كنيسة المدينة المقدّسة أورشليم. ومن دواعي السرور، أنّه يوجد لدينا إصداران ممتازان لهذه الليتورجيّا: الأوّل تمّ على يد Dom B.-Ch. Mercier في العام ١٩٤٦، وهو يستند إلى شهادات ٢٦ مخطوطة[٨]. وفي الجهاز النقديّ لهذا الإصدار (critical apparatus)، نتعرّف على القراءات الآتية من التسليم النصّيّ لهذه الليتورجيّا:

---

(٥) GOAR, 153-156.

(٦) يجد القارئ ملخّص عن الأدلّة التي تساعد على تأريخ هذا المجلّد في:
R. TAFT, "*Questiones disputate:* The Skeuophylakion of Hagia Sophia and the Entrances of the Liturgy Revisited"; Part II, *Oriens Christianus* 82 (1998) 67-71.

(٧) المخطوطتان: المكتبة الوطنيّة اليونانيّة ٦٦٢ (القرن ١٢–١٤) والمتحف البيزنطيّ ٧ (القرن ١٣)؛ أنظر TRE, 173.

(٨) *La Liturgie de St Jaques. Édition critique du texte grec avec traduction latine*, Paris 1946 (repr., Turnhout 1974; Patrologia Orientalis 26.II). See C. A. SWAINSON, *The Greek Liturgies Chiefly from Original Authorities*, Cambridge 1884 (repr., New York 1971), 264-5.

Ὁ *λαός* Ελεος, εἰρήνην, θυσίαν αἰνέσεως؛ هذه القراءة ترد في 177 Univ. Messanenis Gr 177 (القرن ١٠–١١)، ونجد صدىً لها في صلاة الستر (*Εὐχὴ τοῦ καταπετάσματος*) في القول:

ἵνα ἐν καθαρῷ τῷ συνειδότι προσφέρωμέν σοι ἔλεον, εἰρήνην, θυσίαν αἰνέσεως.

بينما نجد في مخطوطات أخرى القراءة الآتية:

Ἔλαιον) εἰρήνη, θυσίαν αἰνέσεως)، وتحديدًا، في المخطوطتين Vaticanus Gr. 1970 (القرن ١٣) و Parisianus Gr. 2509 (القرن ١٥)[١٠].

أمّا الإصدار الثاني لهذه الليتورجيّا، فقد حقّقه A. Kazamias[١١]؛ نصّه يرتكز على مخطوطات دير القدّيسة كاترينا في سيناء، وتحديدًا، تلك التي وُجدت عام ١٩٧٥ في دهليز سور يوستنيانوس. ما يهمّنا في دراستنا هي المخطوطة E 59 (القرن ١١)، المنسوخة لاستعمال الكهنة الناطقين بالعربيّة، لأنّها تشتمل على أسطر مكتوبة بالعربيّة تحت الإعلانات اليونانيّة[١٢]. قراءتها: هي

Ὁ *λαός*· Ἔλεον εἰρήνης θυσίαν αἰνέσεως.

أمّا في ما يختصّ بالتفسيرات الآبائيّة لليتورجيّا الإلهيّة، فإنّا نجد أقدم ذكر لهذا النصّ في *Ιστορία ἐκκλησιαστικὴ καὶ μυστικὴ* للقدّيس جرمانوس رئيس أساقفة القسطنطينيّة (٧١٥–٧٣٠، ٧٣٣). المصدر الموثوق به أكثر من سواه هو إصدار N. Borgia[١٣] [إصدار Migne (PG 98, 384-453)] هو عبارة عن نصّ

(٩) المرجع السابق.

(١٠) المرجع السابق، ٨٢–٨٣ (=١٩٦–١٩٧).

(١١) *Ἡ Θεία Λειτουργία τοῦ Ἁγίου Ἰακώβου τοῦ Ἀδελφοθέου καὶ τὰ νέα σιναϊτικὰ χειρόγραφα,* Thessaloniki, 2006.

(١٢) لمعلومات تفصيليّة عن هذه المخطوطة أنظر المرجع السابق، ٦٥–٦٧.

(١٣) *Il commentario liturgico di S. Germano patriarca Constantinopolitano e versiona Latina di Anastasio Bibliotecario*, Studi Liturgici 1, Grottaferrata 1912.

محرّف يعود إلى القرون الوسطى.(١٤)[القراءة في تفسير القدّيس جرمانوس هي كالآتي: «Ἔλεον εἰρήνης θυσίαν αἰνέσεως»(١٥). ولا ريب في أنّ هذه الشهادة بالغة الأهمّيّة، وذلك لأنّها تسبق زمنيًّا أقدم مخطوطات الإفخولوجي المتوفّرة لدينا. وجواب الشعب على هذا النحو، يفترضه أيضًا، ودون أدنى شكّ، تفسير القدّيس نيقولاوس كافاسيلاس (القرن ١٤) للقدّاس الإلهيّ(١٦)، *Εἰς τὴν θείαν Λειτουργίαν* XXVI.2. يبقى، طبعًا، أن نذكر القراءة التي ترد في التفسير المنسوب إلى ثوذوروس أسقف أنديدا من القرن الثالث عشر، والذي يُعاد اليوم إلى تاريخ أسبق(١٧)، "Ἔλεον, εἰρήνην, θυσίαν αἰνέσεως"(١٨).

أخيرًا، نجد في الترجمات اللاتينيّة القراءة الآتية:

"Miseriordia, pax, sacrificium laudis".(١٩)

---

(١٤) P. MEYENDORFF (trans. & ed.), *St Germanus of Constantinople on the Divine Liturgy*, Crestwood, NY 1984, 12.

في دراستنا اعتمدنا على إصدار ماييندورف للنصّ اليونانيّ، والذي يستند بدوره على عمل Borgia.

(١٥) MEYENDORFF, 90.

(١٦) S. SALAVILLE (ed.), *Nicolas Cabasilas: Explication de la divine Liturgie*, Sources Chrétiennes 4 bis, Paris 1967, 170 (=PG 150, 424AB).

(١٧) يؤكّد الدراسون المعاصرون على أنّ ثوذوروس قد قام بمراجعة نصّ سلفه نيقولاوس، الذي قام بتدوين نصّ التفسير الأصليّ بين ١٠٥٥ و١٠٦٣. راجع بهذا الصدد:

R. BORNERT, *Les commentaires byzantins de la Divine Liturgie du VII^e au XV^e siècle*, Archives d'Orient Chrétien 9, Paris 1966, 181-206.

وقد شكّك J. Darrouzès بدقّة هذا التأريخ ومال إلى اعتبار النصّ مكتوبًا بالأصل بين عامَي ١٠٨٥ و١٠٩٥. راجع بهذا الخصوص مقالته:

"Nicolas d'Andida et les azymes", *Revue des Études Byzantines* 32 (1974) 199-210.

(١٨) *Προθεωρία κεφαλαιώδης, Περὶ τῶν ἐν τῇ Θείᾳ Λειτουργίᾳ γινομένων συμβόλων καὶ μυστηρίων*, 20 =PG 140, 445A.

(١٩) M. TARCHNIŠVILI, *Liturgiae Ibericae Antiquiores*, vol. 2, Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium 123, Louvain, 1950, 8.

**ملاحظة لغويّة**

قبل البدء بتحليل المعطيات المذكورة أعلاه، وإصدار قرارٍ بشأن القراءة الأصحّ، نلفت الانتباه إلى تفصيل يختصّ بقواعد اللغة اليونانيّة وتطوّرها عبر التاريخ. تعرف اللغة اليونانيّة شكلَين اثنين للكلمة ذاتها التي تترجم بالكلمة العربيّة «رحمة»، وهما: ١. ὁ ἔλεος (τοῦ ἐλέου) وهي كلمة بالمذكر، معروفة في الأدب الهلّينيّ وبخاصّة في أثينا، حيث كانت فضيلة الرحمة تُشخَّص كإلهة. τὸ ἔλεος (τοῦ ἐλέους)، وهي كلمة بالمحيّر عُرفت في الترجمة السبعينيّة وفي الفترة الهلّينستيّة عامّة. عندما قام لوقيانوس بمراجعته يونانيّة الكتاب المقدّس في أوائل القرن الثالث الميلاديّ، استبدل الشكل الهلّينستيّ (٢)، الذي أمسى غير مألوف في تلك الحقبة، مع أفول نجم اللهجة الهلّينستيّة، واسترجاع الأتيكيّة عرش اللغة اليونانيّة، بالشكل القديم الهلّيني (١). هذا وقد لاقت مراجعة لوقيانوس قبولاً واسعًا بين الإكليريكيّين المثقّفين وعامّة الشعب على حدّ سواء، وراج استعمالها على مدى قرون عدّة. وتأكيدًا، كان للنصّ اللوقيانيّ تأثير بالغ على المدوّنات اللاهوتيّة، وبخاصّة الليتورجيّة منها. لذا، نصادف في النصوص الليتورجيّة كِلاَ الشكلَين المذكورَين أعلاه لكلمة «رحمة»، إذ استمر الشكل الهلّينستيّ بالظهور لما للترجمة السبعينيّة من تأثير قويّ على الأدب الدينيّ، وخاصّةً، عندما ترتكز جملة ما على آية أو نصّ كتابيّ معروف، كما هي الحال في الجواب الليتورجيّ موضوع دراستنا.

ما يهمنا تحديدًا، أنّنا نستطيع تمييز حالة إعراب الشكل ἔλεος، عندما يكون في صيغة المحيّر المنصوب، حيثما ورد في المخطوطات، من خلال مقارنته مع الحالة التي ترد فيها كلمة θυσία إذا وردت في النصّ. فعندما تُنصب الأخيرة (θυσίαν) في إحدى المخطوطات، تكون كلمة ἔλεος محيّر منصوب. بالإضافة إلى ذلك، في الحالات التي ترد فيها كلمة εἰρήνη باستقلال عن كلمة ελεος (أي غير مضافة إليها)، تحدّد هي أيضًا إن كانت الأخيرة مرفوعة أو منصوبة (مثال: قراءة المخطوطة Univ. Messanenis Gr. 177). أمّا حين يكون الشكل ἔλεος مرفوعًا، فيستحيل

حينها تمييز المحيّر من المذكر. ولكن، في موضوع دراستنا، لا يهمّنا كثيرًا تمييز جنس الكلمة هذه عندما تأتي رفعًا.

## تقييم الدلائل الخارجيّة

بعد استعراض المخطوطات الليتورجيّة القديمة وترجماتها وتفسيرات الآباء لها، نستطيع إبداء الرأي الآتي:

من الواضح أنّ صيغة المضاف والمضاف إليه، Ἔλεον/Ἔλεος εἰρήνης، تتمتّع بدعم واسع من مختلف الشهادات النصّيّة لليتورجيّات الثلاث، بدءًا من المخطوطات القديمة (Codex Barberini Gr. 336 بحسب دراسة J. GOAR [أنظر هامش ١]، Topkapi Sarai Gr. G-i 51, Sinai Gr. 959، نصّ CHR في Γ.β. VII Cryptense، نصّ BAS في Pyromalus، نصّ JAS في Vaticanus Gr. 1970، و E 59, Parisianus Gr. 2509)، مرورًا بالترجمات القديمة (E 59)، وصولاً إلى التفسيرات الآبائيّة، ولا سيّما تفسير القدّيس جرمانوس القسطنطينيّ الذي يرفد هذه القراءة بدعم لا يستهان به، وكذلك تفسير القدّيس نيقولاوس كاباسيلاس. وجدير بالملاحظة، أنّ هذه القراءة معروفة في الليتورجيّات الثلاث، وأنّ الشهادات النصّيّة التي تدعمها تأتي من مصادر جغرافيّة متنوّعة، ممّا يعزّز الثقة بأصالة هذه القراءة.

وتبرز قراءة أخرى لها ثقل في الشهادات النصّيّة المهمّة التي ذكرناها سابقًا، بحسبها تصطفّ المفردات، الواحدة بإزاء الأخرى، إن رفعًا، Ἔλεος, εἰρήνη Codex Barberini Gr 336.، نصّ BAS في Γ.β. VII Cryptense)، أو نصبًا Ἔλεον/Ἔλεος, εἰρήνην, (JAS في Univ. Messanenis Gr. 177 ، التفسير المنسوب إلى ثوذوروس أسقف أنديدا).

يتّضح، إذًا، من خلال مقارنة الشهادات القديمة المتوفّرة، أنّ القراءة «Ἔλεον/Ἔλεος εἰρήνης» هي أقدم القراءات(٢٠).

(٢٠) هذا الرأي يخالف ما اعتقده العلامّة الليتورجيّ يوحنّا فوندوليس (Ioannis Fountoulis) في دراسته:=

### ٣. الدلائل الداخليّة

فضلاً عن الشهادات القويّة التي وفّرتها الدلائل الخارجيّة للقراءة (Ἔλεος εἰρήνης/"Ἔλεον")، تأتي الدلائل الداخليّة أيضًا لتؤكّد صحّة هذه القراءة. القاعدة العامّة تعتبر القراءة الصعبة هي الأصحّ، وكذلك القراءة التي تفسّر نشوء القراءات الأخرى، أي تلك التي ترشدنا إلى سبب استبدالها من بعض النسّاخ بواحدةٍ أوضح. لذا، سوف أعمد في هذا المقام إلى شرح تفصيليّ لصياغة جملة جواب الشعب مع نداء الشمّاس الذي يسبقه، لكي أبيّن أن صعوبة فهم بنية الجملة والمعنى اللاهوتيّ في القراءة القديمة والأصيلة، قد دفع ببعض النسّاخ إلى إجراء تعديلات طفيفة عليها، في محاولة منهم لتبسيط معناها، ومحو الغموض.

تعدّي الفعل προσφέρειν (قدّم) إلى مفعولَين:

في تفسيرهم لجواب الشعب، أصاب المفسّرون القدماء والحديثون بربطه بنداء الشمّاس السابق له مباشرةً: «لنقف حسنًا، لنقف بخوفٍ، لنصغ، لنقدّم (προσφέρειν) بسلامٍ القربان المقدّس (τὴν ἁγιάν ἀναφοράν)». ثاوذورس أسقف أنديدا يفسّر جواب الشعب كالآتي: «يلتزم المؤمنون بأن يقدّموا أوّلاً الرحمة، ثم السلام كذبيحة تسبيح». وبحسب القدّيس نيقولاوس كاباسيلاس، يجيب الشعب: «لا نقدّم بسلامٍ وحسب، بل نقدّم هذا السلام بعينه بدل أيّ قربان أوذبيحةٍ أخرى»[٢١]. وما يهمّنا في هذا الخصوص، هو أنّهما يعتبران كلمة «رحمة» منصوبة (ἔλεον)، لأنّها تأتي كمفعول به ثانٍ للفعل προσφέρειν (لنقدّم) الذي يرد في نداء الشمّاس، علمًا أنّ المفعول به الأوّل هو كلمة ἀναφοράν «القربان». وفعلاً، من الممكن أن يتعدّى الفعل προσφέρω إلى مفعولَين فينصبهما، عندما يكون المعنى تقديم شيء ما كذبيحةٍ (رج ١ كليمنضس

---

Ιωαν. Φουντούλης, Ερμηνεία επτά δύσκολων σημείων του κειμένου της Θείας = Λειτουργίας από το Νικόλαο Καβάσιλα, Ανάτυπο από το τόμο του συνεδρίου για την αγιοποίηση του Νικολάου Καβάσιλα, Θεσσαλονίκη 1984, 162.

ومن قبله بانايوتيس ترمبلاس TRE, 96

(٢١) *Εἰς τὴν θεῖαν Λειτουργίαν*, XXVII, 2.

١٠ : ٧، رسالة برنابا ٧ : ٣ ج)(٢٢).

يترسّخ الاعتقاد بأنّ الكلمتين المنصوبتين «رحمة» و«ذبيحة»، المتوازيتين، هما بمثابة مفعولٍ به ثانٍ يقع عليهما الفعل προσφέρειν، «قدّم»، الذي يرد في نداء الشمّاس، عند علمنا أن هذا الفعل يُستعمل غالبًا بمعنى تقنّيّ، مرتبطًا بالذبائح على الأخصّ، وبالعبادة عامّة(٢٣). فمن المنطقيّ، إذًا، القول إنّ هذا الفعل المتعدّي إلى مفعولين، أولّهما «القربان» في نداء الشمّاس، وهي كلمة تنتمي طبعًا إلى نطاق الذبائح العباديّة، يقع أيضًا على مفعول آخر في جواب الشعب، هو الكلمتان «رحمة» و«ذبيحة». فكلمة «ذبيحة» تتناسب طبعًا مع فعل «قدّم»، وكذلك أيضًا كلمة رحمة، كما في المعنى الذي تكتسبه في هذا السياق، وهو موازٍ تمامًا لكلمة «ذبيحة»، وسيأتي شرح هذا الأمر لاحقًا.

وقناعتي بهذا الصدد، هي أنّ بعض النسّاخ لم يفقهوا سبب ورود الكلمتين ἔλεον θυσίαν في حالة النصب، وهو أنّهما مفعولان ثانيان وقع عليهما الفعل προσφέρειν، فلجأوا إلى تطويع القراءة الأصيلة αἰνέσεως، فبرزت بعد التصحيح القراءتان الثانويّتان الآتيتان:

١) استبدل بعضهم المضاف المنصوب ἔλεον. والمضاف إليه εἰρήνης بالكلمتين مرفوعتين، مما أدّى إلى نشوء القراءة "Ελεος εἰρήνη, θυσία αἰνέσεως"، وهي طبعًا القراءة الأسهل، لأنّ الكلمتين «رحمة» و«سلام» تأتيان بحسب هذه القراءة المتأخرّة كمبتدأ في جواب الشعب، فتجعلانه بالتالي مستقلاً عن نداء الشمّاس، مما يحتّم تفسيره كجملة مستقلّة.

٢) حافظ بعضهم على القراءة الأصيلة "ελεον و θυσίαν في حالة النصب، بيد أنهم ارتأوا استبدال حالة الإضافة εἰρήνης العسيرة الفهم، بحالة النصب، فنشأت بنتي،جة ذلك القراءة "Ελεον, εἰρήνην, θυσίαν αἰνέσεως" التي يعرفها ثاوذورس أسقف أنديدا.

(٢٢) BAUER Walter, *Griechisch-deutsches Wörterbuch zu den Schriften des Neuen Testaments und der frühchristlichen Literatur*, 6. völlig neu bearbeitete Auflage, hrsg. von Kurt Aland und Barbara Aland, De Gruyter, Berlin-New York, 1988, 1441, note 2a.

(٢٣) المرجع السابق، 1441, note 2.

خلاصة القول، يمكن اعتبار القراءة "Ελεον εἰρήνης, θυσίαν αἰνέσεως" بمثابة القراءة الصعبة، التي لجأ بعضٌ من النسّاخ إلى تعديلها، مختارين جملة بناؤها أبسط فهمًا، وذلك برصّ الكلمات إلى بعضها متجانسة، إمّا رفعًا أو نصبًا، وهذا ما يؤكّد مجدّدًا أصالتها.

**معنى الجملة «رحمةَ سلام»**

كما ذُكر أعلاه، لم تكن حالة النصب التي وردت فيها كلمة «رحمة» الصعوبة الوحيدة التي أوحت لبعض النسّاخ بضرورة تبسيط القراءة الصعبة، بل وأيضًا الجملة الغامضة المكوّنة من مضاف ومضاف إليه («رحمة سلام»). فإن تبيّن المعنى الكتابي لهذه القراءة، بشكل يساعد على فهم أفضل لجواب الشعب على نداء الشمّاس، حينها تُضاف حجّة أخرى في الدفاع عن أصالتها.

عند استعراض مختلف آراء المفسّرين، القدامى والمحدثين، للجملة «رحمةَ سلام»، يلاحظ المرء بسهولة أنّ تفسير كلمة «رحمة» في هذا السياق لم يكن أمرًا سهلاً، والأعسر من ذلك كان تفسير نوع الإضافة في عبارة «رحمة سلام»، على نحوٍ يؤدّي معنى منطقيًّا له علاقة بما يسبق هذه الجملة وبما يليها. بكلام آخر، من السهل أن يكتب المرء إنشاءً عن الرحمة والسلام، ولكن كيف يمكن الربط بينهما وبين تقديم القربان المقدّس، والأصعب من ذلك، كيف توضّح علاقة «رحمة السلام»، أو «الرحمة والسلام»، مع الجملة اللاحقة الموازية، أي «ذبيحة التسبيح».

يرى ثاوذورس أسقف أنديدا أنّ المؤمنين يقدّمون الرحمة والسلام بمثابة ذبيحة تسبيح. وبعد أن يؤكّد القدّيس كاباسيلاس على وجوب تقديم السلام والرحمة بدل أيّ قربان أو ذبيحة أخرى، يربط بين الرحمة والسلام، بتعريفه الرحمة بأنّها وليدة السلام الثابت الذي لا يشوبه عيب. ونجد أصداء التفسيرات القديمة تتردّد بين المفسّرين المعاصرين، فيعتبر ب. ترمبلاس جواب الشعب «تحريضًا للمؤمنين على الصفح لبعضهم البعض والمسالمة»(٢٤)؛ ويكتب أيضًا: «إننا نقدّم صفحًا رحومًا يولّد السلام»(٢٥).

(٢٤) TRE, 96.

(٢٥) Π. Τρεμπέλας, *Λειτουργικόν*, Αθῆναι, 1973, 89. 157.

باعتقادي، إنّ عبارة «رحمة سلام» هي موازية شكلاً ومضمونًا لعبارة «ذبيحة تسبيح». كلتاهما تضيفان توضيحًا مهمًّا على جوهر فعل تقدمة القرابين على المذبح المقدّس، وذلك من خلال تعابير كتابيّة، تتلاءم مع طبيعة التقدمة المسيحيّة، ولها مدلول لاهوتيّ عميق جدًّا، ومتنوّع المعاني.

أولاً، إن القول بتشابه العبارتين شكلاً ومضمونًا، مفاده أن كلّ عبارة توازي مصطلحًا كتابيًّا من طقوس الذبائح، وجد فيه المسيحيّون رمزًا (τύπος) للذبيحة السرمديّة التي تقدّم في الاجتماع الإفخارستيّ. وكما سبق القول، في نداء الشمّاس إلى تقديم «التقدمة المقدَّسة» τὴν ἁγίαν ἀναφορὰν προσφέρειν"[٢٦]، توجد مصطلحات تقنيّة من طقوس الذبائح، وذلك في كلّ كلمة على حدة[٢٧]، وفي الجملة بتمامها. وكجوابٍ على هذا النداء، يضيف الشعب أنّ التقدمة المقدّسة تُقدّم كذبيحة، وتحديدًا **كذبيحة سلام وذبيحة تسبيح**، حيث استبدلت عبارة «ذبيحة سلام» بعبارة «رحمة سلام».

إنّ مفتاح الحلّ لمشكلة فهم «رحمة سلامٍ، ذبيحة تسبيح»، يكمن في عبارة «ذبيحة السلام والتسبيح» في العهد القديم (لا ٧: ١٣، ١٥، ٢ أخ ٣٣: ١٦؛ رج أيضًا ١ ملك ٤: ٥٦). فقد اعتبر المسيحيّون هذه الذبيحة رمزًا يمثّل (ἀντίτυπος) [٢٨] ذبيحة المسيح[٢٩] السرمديّة «بدمه الخاصّ»[٣٠]، التي فيها «قدّم نفسه لله بروح أزليّ»[٣١]، فحلّت مكان القرابين والذبائح التي كانت «بدم

(٢٦) «التقدمة المقدّسة» هي الترجمة الأدقّ للعبارة τὴν ἁγίαν ἀναφορὰν التي ترد في نداء الشمّاس.

(٢٧) لقد سبق التلميح أعلاه إلى هذا المدلول التقنيّ للفعل προσφέρω، ثمّ إنّ كلمة ἀναφορὰ، في مز ٥٠: ٢١ (بحسب السبعينيّة) تُترجم الكلمة العبرية עֹלָה والتي تختصّ بتقدمة المحرقات. أنظر أيضًا العبارة θυσίαν ἀναφέρειν التي ترد مرارًا كثيرة في العهد القديم، وفي العهد الجديد ترد في عب ٧: ٢٧؛ ١٣: ١٥؛ ١ بط ٢: ٥؛ رج يع ٢: ٢١.

(٢٨) رج عب ٩: ٢٤.

(٢٩) أنظر عب ٩: ٢٦ على وجه الخصوص ومجمل عب ٩ عامّة.

(٣٠) عب ٩: ١٢.

(٣١) عب ٩: ١٤.

ثيران وتيوس»[٣٢]، وحقّقت لنا «فداءً أبديًّا»[٣٣].

و«ذبيحة السلام والتسبيح» تسمية تجمع بين «ذبيحة السلام» و«ذبيحة التسبيح».

ذبيحة السلام: يكثر ذكرها في العهد القديم، حيث ترد عادةً كلمة «سلام» في الجمع זֶבַח שְׁלָמִים (*zebah šelamîm*)[٣٤]، وهي ذبائح تتّصل دائمًا بمائدة جماعيّة غنيّة وحركات طقسيّة من رفع وتقدمة، وتهدف إلى المسالمة وبناء علاقة حسنة مع الله والاشتراك في المائدة الإلهيّة. لقد كانت ذبائح السلام شائعة جدًّا ومحبَّبة لدى الإسرائيليّين، إذ كانت مناسبة للبهجة والسرور.

اختار المسيحيّون، إذًا، ذبيحة السلام كرمزٍ يمثّل ذبيحة المسيح الأبديّة التي تُقَدَّم لادمويًّا في سر الشكر، لأجل الخصائص المشتركة بينهما؛ فذبيحة المسيح حقّقت المصالحة مع الله (رج رو ٥: ١٠؛ ٢ كو ٥: ١٤–٢١؛ كول ١: ٢١–٢٢)، وهي أيضًا مائدة مشتركة يجتمع إليها المؤمنون، فتفعم قلوبهم سرورًا.

وبالرغم من وجود خصائص مشتركة بين ذبيحة السلام والتقدمة الإفخارستيّة، فضّل المسيحيّون تعديل تسمية «ذبيحة السلام»، حين استبدلوا كلمة «ذبيحة» بكلمة «رحمة»، فجعلوا العبارة «رحمة سلام». لأنّ ذبيحة السلام كانت تفترض حكمًا تقدمةً حيوانيّة يُرَشّ دمها على المذبح ويحرق دسمها عليه، والربّ يسوع يقول: «رحمةً أريد لا ذبيحة» (مت ٩: ١٣)[٣٥]. لقد عبّر المسيحيّون، بتعديلهم تسمية «ذبيحة سلام» وجعلها «رحمة سلام»، عن عدم اكتراثهم بالذبائح الحيوانيّة، انسجامًا مع تعليم العهد الجديد، وعن التزامهم المطلق بحثّ الربّ يسوع لهم على الرحمة بدل ذبح الحيوانات.

---

(٣٢) عب ٩: ١٢–١٣.

(٣٣) عب ٩: ١٢.

(٣٤) باستثناء عا ٥: ٢٢، حيث ترد في المفرد.

(٣٥) يذكر القدّيس نيقولاوس كاباسيلاس هذه الآية كخلفيّة لكلمة الرحمة في جواب الشعب، بيد أنّه لا يربط بين «رحمة السلام» و«ذبيحة السلام».

طبعًا، لا تبيّن تلقائيًّا خلفيّة صياغة العبارة «رحمة سلام» للقارئ أو حتّى للدارس، فهي، دون أدنى شكّ، صعبة الفهم. فإذ عجز بعض النساخ عن إدراك تفسيرها، لجأوا إلى تعديلها بما يسهّل فهمه.

ذبيحة التسبيح: هي بدورها نوع من ذبائح السلام، تعبّر عن شكر المقدّم وامتنانه لله على البركات التي تلقّفها منه. فلا عجب في استعمالها كرمزٍ لذبيحة المسيح في هذه الجملة الليتورجيّة، لما تحمله في نصوص العهدين، القديم (في سفر المزامير خصوصًا) والجديد (الرسالة إلى العبرانيّين)، من قيمٍ ومعانٍ، تخاطب جوهر الذبيحة الإفخارستيّة. ثمّة ثلاث نقاط مشتركة تجعل من ذبيحة التسبيح الأكثر ملاءمةً، كرمزٍ قديم يشير إلى الإفخارستيّة، وهي الآتية:

١) لعلّ أهمّ ما يجمع بين ذبيحة التسبيح والتقدمة الإفخارستيّة هو التسمية المتطابقة. فتسمية «ذبيحة التسبيح» في اللغة العربيّة، أتت من المصطلح اليوناني θυσία αἰνέσεως الذي تستعمله الترجمة السبعينيّة لترجمة المصطلح العبريّ (ذبيحة شكر). ونجد في بعض الترجمات الحديثة إلى لغات معاصرة، ترجمةً حرفيّة للعبارة العبريّة זֶבַח תּוֹדָה ، «ذبيحة الشكر».

٢) من بين المقاطع العديدة التي أتت فيها هذه العبارة، نميّز مقطعين، لا بدّ وأنّهما أثارَا اهتمام المسيحيّين القدماء.

– نقرأ في ٢ أخ ٢٩: ٣١ أنّ الجماعة قد أتت «بذبائح كتقدمات شكرٍ»، وتُترجم السبعينيّة هذه الجملة كالآتي:

ἀνήνεγκεν ἡ ἐκκλησία θυσίας καὶ αἰνέσεως

نجد في بداية هذه الجملة الفعل ἀναφέρω الذي منه تشتقّ كلمة ἀναφορά (التقدمة) التي يدعو الشماس المؤمنين إلى تقدمتها، فيجيبونه إنّ «التقدمة المقدّسة» هي «رحمة سلامٍ، ذبيحة تسبيح». كما يلفت انتباهنا في نصّ الآية ٢ أخ ٢٩: ٣١، أنّ الكنيسة قدّمت آنذاك ذبيحة التسبيح/الشكر، كما تقدّم كنيسة

المسيح أيضًا التقدمة المقدّسة كذبيحة تسبيح.

– ينقل لنا مز ٤٩ كلامًا لله، يحذّر فيه شعبه إسرائيل من جهله وأفكاره وتصرفّاته الخاطئة. يخبره الله بأنّه لا يحتاج إلى حيوانات ذبائحه، لأنّه هو صنعها، وله المسكونة وملؤها (آ ٩–١٢). ثمّ يسأله: «هل آكل لحم الثيران أو أشرب دم التيوس» (آ ١٣)، في إشارة إلى الذبائح الحيوانيّة على أنواعها. لكي ينتهي آمرًا إيّاه: «إذبح لله ذبيحة تسبيح/شكر، وأوف العليّ نذورك، وادعني في يوم الضيق أنقذك فتمجّدني». هكذا، يتّفق مز ٤٩ مع الرسالة إلى العبرانيّين في تفضيل ذبيحة التسبيح/الشكر على ذبائح الثيران والتيوس.

٣) فضلاً عن أنّ تسمية ذبيحة التسبيح/الشكر في العهد القديم مطابقة لتسمية تقدمة الإفخارستيّة، وأنّ الكنيسة قدّمت في العهد القديم ذبيحة التسبيح، التي يفضّلها مز ٤٩ على ذبائح الثيران والتيوس، ثمّة مقطع ذو أهمّيّة قصوى في الرسالة إلى العبرانيّين، يُظهر أنّ الرسول بولس كان البادئ في استعمال رمزيّة ذبيحة التسبيح، في الحديث عن ذبيحة المسيح. في المقطع عب ١٣: ١٢–١٦ ينقل كاتب الرسالة قول الرسول، إنّ دم المسيح المهراق لتقديس المؤمنين، هو ذبيحة تسبيح، يقدّمها المؤمنون لله على مدى الأيّام. ويقدّم تفسيرًا مسيحيًّا لماهيّة ذبيحة التسبيح، بالقول إنّها «ثمرة شفاه تحمد الله» (آ ١٥)، مردفًا أنّ الأعمال الحسنة والشركة يتلازمان مع هذه الذبيحة، ومؤكّدًا أنّ الله يسرّ بذبائح كهذه (آ ١٦).

لأجل هذه الأسباب مجتمعةً، وجد المسيحيّون في ذبيحة التسبيح رمزًا ممثّلاً للذبيحة الأبديّة الحقّة بامتياز، والتي يحتفلون بها في سرّ الشكر. وكان التفسير المسيحيّ الذي تقدّمه الرسالة إلى العبرانيّين لذبيحة التسبيح، الدافع الرئيسيّ للمحافظة على تسمية «ذبيحة التسبيح» كما هي، وعدم تعديلها على غرار ما حصل مع تسمية «ذبيحة السلام».

**٢. الخلاصة**

تبيّن من خلال تطبيق النقد النصّيّ والكتابيّ في دراسة جواب الشعب، موضوع هذه الدراسة، أنّ القراءة «رحمة سلامٍ، ذبيحة تسبيح» هي الأصيلة والصحيحة. فبعد التدقيق في الدلائل النصّيّة الخارجيّة، تبيّن أنّ أصالة القراءة المذكورة تُدمَغ بشهادة الوثائق الأقدم المتنوّعة. كما تبيّن من دراسة الدلائل الداخليّة، أنّ هذه القراءة الأصيلة تمتّن الصلة بين جواب الشعب ونداء الشمّاس، إن من ناحية القواعد اللغويّة وبنية الجملة، وإن من ناحية المضمون. أمّا من الناحية اللغويّة، فلأنّها توضّح إعادة سبب حالة النصب في الجواب إلى الفعل «لنقدّم» في النداء الذي يقع أحيانًا على مفعولين، عندما يستعمل كمصطلحٍ يختصّ بطقوس الذبائح. وأمّا من ناحية المضمون، فلأنّ العبارة «رحمة سلام» هي تسمية مسيحيّة معدّلة لذبيحة السلام، أُدخلت للتوفيق بين تفضيل الرحمة على الذبائح الحيوانيّة، وبين المعاني اللاهوتيّة التي تحملها ذبيحة السلام، والتي تجعل منها رمزًا يمثّل ذبيحة المسيح الخلاصيّة. وبالتالي، ترتبط هذه العبارة ارتباطًا وثيقًا بالفعل «قدّم» الذي يقع عليها والذي يحمل معنى تقنيًّا في هذا السياق. ثمّ إنّ شرح عبارة «رحمة سلامٍ» كذبيحة سلام، يوطّد صلتها بما يليها أيضًا، أي بالعبارة التي تأتي كبدل لها، «ذبيحة التسبيح». ولكنّ هذه الأخيرة لم تكن بحاجة إلى تعديل على غرار استبدال كلمة «ذبيحة» بكلمة «رحمة» في الجزء الأوّل من الجواب، لأنّها حصلت مسبقًا على تفسير لها لادمويّ في المقطع ١٣: ١٢–١٦ من الرسالة إلى العبرانيّين.

فعندما تُفهم الجملة «رحمة سلامٍ، ذبيحة تسبيح» على خلفيّة ذبيحتَيّ العهد القديم اللتَين تحملان التسميتَين، يصبح بالإمكان الاستدلال على هدف المسيحيّين من اسعمال هذه الجملة في سياقها الليتورجيّ. فالقول رمزًا، إنّ التقدمة المقدّسة هي «ذبيحة سلام»، يعني أنّه من خلال الالتفاف حول مائدة الربّ، يستتبّ السلام مع الله مجدّدًا، لسرور المؤمنين وخلاصهم. وفي القول،

رمزًا، إنّها ذبيحة تسبيح، تشديدٌ على طابعها الشكريّ (الإفخارستيّ) والكنسيّ واللادمويّ.

كما تبيّن لنا أيضًا، أنّ هذا المعنى اللاهوتيّ الغنيّ، قد امتُنع عن أعين الدارسين، بسببٍ من تصليحات النسّاخ. بعض هؤلاء، إذ لم يفهموا معنى الرمز الذبائحيّ المقصود بالجملة «رحمة سلام، ذبيحة تسبيح»، وبسبب ذلك، لم يفقهوا ورود المضافَين نصبًا، قاموا تعديلات على قراءة الجملة، جعلت القسم الأوّل منها (رحمة سلام) يُقرأ كمفردتَين مستقلّتَين، لا كمصطلح من طقوس الذبائح. فأخذ بعضهم يعطف المفردتَين على بعضهما، ويشرحهما مستقلَّتَين عن بعض، وآخرون ما انفكّوا يقرأونهما ببساطة كمضاف ومضاف إليه دون خلفيّة كتابيّة، ويحاولون جاهدين إيجاد تفسير ذي فائدة. غاية القول، إنّ هذا التحليل يثبت أنّ صعوبة فهم «رحمة سلام» أدّى إلى نشوء القراءات الأخرى المتأخّرة، لا العكس، ممّا يُعتبر حجّة دامغة لأصالة هذه القراءة.

ختامًا، لقد كان القصد من هذه الدراسة إظهار أهمّيّة تطبيق معايير نقد النصّ، والتفسير على ضوء الكتاب المقدّس، وصولاً إلى شرح النقاط الصعبة في نصّ الليتورجيا الإلهيّة – ولعلّ هذا الجواب الليتورجيّ أكثرها غموضًا – مخافة أن يقود التحليل غير العلميّ، والمبنيّ على آراء ذاتيّة غير موثّقة، إلى استنتاجات تحجب المعاني الغنيّة للجمل الليتورجيّة.